

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٨ - سورة ن

وتسمى سورة القلم . وهي مكية . وآيها ثنتان وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (نَ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

[٢] (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[٣] (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

[٤] (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

« ن » بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف ، قصد به التحدى . أو اسم للسورة ، منصوب بـ (اذكر) أو مرفوع خبر المحذوف « وَالْقَلَمِ » أى الذى يخط به « وَمَا يَسْطُرُونَ » أى يكتبون . و (ما) مصدرية أو موصولة . وقوله « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » جواب القسم ، قصد به تكذيب المشركين فى إفكهم المحدث عنه بآية (١) : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) .

قال الزجاج : (أَنْتَ) هو اسم (ما) ، و (بمجنون) الخبر . وقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) كلام وقع فى البين . والمعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال : أنت بحمد الله عاقل ، وأنت بحمد الله فهم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت ، بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه . فالباء فى (بِنِعْمَةِ) متملقة بمعنى النفى المدلول عليه بـ (ما) والباء فى (بِمَجْنُونٍ) زائدة .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا » أى ثواباً على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن ، والصبر عليه « غَيْرَ مَمْنُونٍ » أى غير منقوص ولا مقطوع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال ابن جرير^(١) : من قولهم (جبل منين) إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منقته ، أى : قوته . أو غير ممنون به عليك ، زيادة في العنافية به ﷺ ، والتنويه بمقامه .
« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » قال ابن جرير^(١) : أى أدب عظيم . وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه .

قالت عائشة^(٢) : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . أى كما هو فى القرآن .
قال الرازى : وهذا كالتفسير لقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) والدلالة القاطعة على براءته مما رى به ، لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب ، والانصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه . وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافى حصول الجنون . فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأخرى بأن يرمى بما قذف به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

[٦] (بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ)

[٧] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » أى أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة .

« بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ » أى المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهاباً ، إلى أن المصدر يجيء على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى (فى) . أى : من كوشف بأسرار العلوم ، وأوتى جوامع الكلم ، أم من حجب عما فى نفسه من آيات الله والعبر ، وفتن بعبادة الصنم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ (طبعتنا) ،

وهو حديث طويل جمّ الفوائد .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » أى : عن طريق الحق الذى أمر به ،
« وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى بمن اتبع الحق ، وسلك سبيله ، فسيمجزي الفريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٨] (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)
 [٩] (وَدُّوْا لَوْ تَدُهْنُ فَيُدْهِنُونَ)
 [١٠] (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)
 [١١] (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبِيمٍ)
 [١٢] (مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)
 [١٣] (عْتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)
 [١٤] (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)
 [١٥] (إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)
 [١٦] (سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرطومِ)

« فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله ، وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشري : تهيبج وإلهاب على معاصاتهم .

« وَدُّوْا لَوْ تَدُهْنُ فَيُدْهِنُونَ » أى : ودوا لو تركن إلى آلتهم ، وتترك ما أنت عليه
من الحق ، فيما لثونك - رواه ابن جرير^(١) عن مجاهد - ثم قال : أى : لو تدين لهم فى دينك
بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه^(٢) .
(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرُكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ

(١) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٧٤ ، ٧٥] .

وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين في القول بتليين الدهن .
 « وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَافٍ » أى : كثير الحلف . قال الزمخشري : وكفى به مزجرة
 لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله تعالى^(١) (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) . « مَهِينٍ »
 أى : حقير الرأى والتميز .

« هَمَّازٍ » أى : عيب طعان : قال ابن جرير^(٢) : والهمز أصله الغمز . فقييل للمعتاب :
 هاز ، لأنه يطعن في أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم . « مَشَّاءٍ مِّنْمِيمٍ »
 أى : يقال لحديث الناس بعضهم في بعض ، للإفساد بينهم .

« مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ » أى : بخيل بالمال ، ضنين به . والخير المال . أو صاد عن الإسلام .
 « مُعْتَدٍ » أى : على الناس ، متجاوز في ظلمهم . « أُثِيمٍ » كثير الآثام .

« عَقْلَمٍ » أى : جاف غليظ . دعى « بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » أى : دعى مالمصق في النسب ، ليس
 منهم . أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير^(٣) : ومعنى (بعد) في هذا الموضع معنى (مع) .
 وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص ، لا للأخير فقط . وهى للدلالة على
 أن ما بعده أعظم في القباحة . فـ (بعد) هنا كـ (ثم) الدالة على التفاوت الرتبى ، كما مر في
 قوله^(٤) (بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

« أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » قال الزمخشري : متعلق بقوله (وَلَا تُطْعِ) يعنى : ولا
 تطعمه مع هذه المثالب ، لأن كان ذامال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما
 بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهماً بالبنيين ، كذب بآياتنا .
 « إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا » أى : تقرأ عليه آيات كتابنا « قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولِينَ »

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) [٦٦ / التحريم / ٤] .

أى : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .
وقوله : « سَنَسِمُهُ وَعَلَى الْخُرطومِ عِدَّةٌ مِنْهُ تَعَالَى بِغَايَةِ إِذْلَالِهِ ، بَعْدَ تَنَاهَى كِبَرِهِ وَعَجْبِهِ
وزهوه وعتوه . تقول العرب : وسمته بميسم السوء : يريدون أنه الصق به من العار مالا
يفارقه . قال جرير (١) :

لما وضعتُ على الفرَزْدَقِ مِيسِمِي وَعَلَى البَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَحْطَلِ
قال الزمخشري : الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه ،
لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه (الأَنَفَةُ) وقالوا : الأنف في
الأنف ، وحى أنفه ، وفلان شامخ العينين . وقالوا في الدليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه . فعبر
بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف
بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أبا عره في وجوها ، فقال له رسول الله ﷺ :
أكرموا الوجوه ، فوسمها في جوارعها . وفي لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة ،
لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل . وقيل : سئل يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن
سائر الكفرة ، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم . انتهى .

تنبيه :

قيل : عنى بالآية الأخنس بن شريق . قال ابن جرير (٢) : وأصله من ثقيف ، وعداده
في بني زهرة . أى : لأنه التحق بهم حتى كان منهم في الجاهلية . ولذا سمي زنيا للصوقة
بالقوم ، وليس منهم وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة من مولده .

(١) من قصيدته التي مطلعها :

لَعَنَ الدِّيَارُ كَأَنَّهَا لَمْ تُحَلَّلْ بَيْنَ الكِنَاسِ وَبَيْنَ طَلْحِ الْأَعْزَلِ
الكناس : بيلاذغنى . والأعزل : لبني كلب وبه ماء يسمى الأعزل . والطلح شجر
من العضاة . (شرح ديوان جرير ص ٤٤٢) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

[١٨] (وَلَا يَسْتَتِنُونَ)

« إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » أى بلونا مشركى مكة ، فاختبرنا بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ، فلا تكون عاقبتهم إلا كماقبة أهل الجنة فى امتحانهم الآتى ، ثم دمارهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببليية ، وهى القحط والجوع ، بدعوة رسول الله ﷺ ، (كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) وهم قوم من أهل الكتاب - على ما روى عن ابن عباس - أو ناس من الحبشة - فى قول عكرمة - أى : كتابيون . فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به ، تعيين أهله ، لولا محبة المأثور « إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » أى : ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لا يعلم مسكين بذلك « وَلَا يَسْتَتِنُونَ » قال المهايى : أى : ولا يخرجون شيئاً من حق الساكين ، واقتصر عليه . وحكاه الرازى والقاضى قولاً ثانياً . والأول أن معناه : ولا يقولون إن شاء الله - واقتصر عليه ابن جرير^(١) والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسى ، والجملة معطوفة على لَيَصْرِمُنَّهَا) ومنقسم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَاعُونَ)

[٢٠] (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ » أى فطرق جنه هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله لتدميرها .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال أيضاً^(١) :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْجَوْنُ الْبَهِيمُ فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحِ صَرِيمٍ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ)

[٢٢] (أَنْ أُغْدُوا عَلَىٰ حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ)

[٢٣] (فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ)

[٢٤] (أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينُونَ)

[٢٥] (وَعَدَّوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ)

[٢٦] (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ)

[٢٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« فتنادوا » أى فنادى بعضهم بعضاً « مُصْبِحِينَ » أى وقت الصبح ، ولم يشعروا

= وقال الفراء فى معانى القرآن (٣٣٩) فأصبحت كالصريم : أى احترقت ، فصارت سوداء مثل الليل المسوداه . وفى اللسان (صرم) عن ثعلب : فأصبحت كالصريم أى احترقت فصارت سوداء مثل الليل اه . ويقال : كالشيء المصروم ، الذى ذهب ما فيه . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تبت شيئاً . وقال الجوهري : أى احترقت واسودت (حاشية ابن جرير) .

(١) الجون : الأسود . والبهيم : الخالص السواد ، لا بياض فيه . وينجاب : ينكشف ويذول . وصريم : أى ليل .

وهذا الشاهد فى معنى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الصريم بمعنى الليل الشديد السواد (حاشية ابن جرير) .

بما جرى عليهم بالليل « أَنْ أَعْدُوا » أى اخرجوا غدوة « عَلَى حَرِّكُمْ » أى زرعكم « إِنْ كُنْتُمْ صَّارِمِينَ » أى قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها « فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ » أى يكتمون ذهابهم ويتسارون فيما بينهم « أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ » أى فقير . فالجملة مفسرة . أو (أن) مصدرية . أى بأن .

قال الزخشرى : والنهى عن الدخول للمسكين ، نهى لهم عن تمكينه منه . أى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل . كقولك : لا أريناك ههنا .

« وَاعْدُوا عَلَى حَرِّدٍ » أى غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجِدِّ من أمرهم ، أو على منع وغضب « قَدِيرِينَ » أى فى زعمهم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين . « فَلَمَّا رَأَوْهَا » أى فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقا حرثها « قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى أنكروها وشكوا فيها . هل هى جنتهم أم لا . فقال بعضهم لأصحابه : ظننا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التى رأوها غيرها : إنا ، أيها القوم ، لصالون طريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق : بل نحن ، أيها القوم ، محرومون ، حرمانا منعمة جنتنا بذهاب حرثها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)

[٢٩] (قَالُوا سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ)

[٣٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلَوٰمُونَ)

[٣١] (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ)

[٣٢] (عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّمَّآ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رٰغِبُونَ)

« قَالَ أَوْسَطُهُمْ » أى أعدلهم وخيرهم رأيا « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ » أى :

تذكرون الله وتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من المجرمين . وكان أوسطهم وعظّمهم حين عزموا على عزيبتهم الخبيثة ، فعصوه ، فميرهم . « قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى فى ترك استثناء حق المساكين ، ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ » أى يلوم بعضهم بعضاً . « قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى متجاوزين حدود الله تعالى فى تفریطنا وعزمنا السيئ « عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا » أى بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله . « إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ » أى فى العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فأننا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

« كَذَلِكَ الْعَذَابُ » أى فى الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبغى الفساد الأرض . « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ » أى أعظم منه « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى لارتدعوا وتابوا وأتابوا . فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيلاً لما قبله ، إذ لا مدخلة لعلمهم فى كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : قال ابن القيس : استدل بهذه القصة عبدالوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها . ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين ، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم . وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالدهى عنه فى الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزمخشري عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تبعاً .

وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٣٤] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ) .
 [٣٥] (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) .
 [٣٦] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) .
 [٣٧] (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) .
 [٣٨] (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) .
 [٣٩] (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) .
 [٤٠] (سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ) .
 [٤١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) .
 [٤٢] (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) .
 [٤٣] (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ) .

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ » أي في الكرامة والثوبة الحسنی ، والعاقة الحميدة . « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » أي بما ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان في قضيته . « أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ » أي من الأمور لأنفسكم ، وتشتهونه لكم ، كقوله (١) : (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ) وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل ،

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٠] .

ويتمنون من الأمانى الكاذبة «أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ» أى تقضون من أمانيتكم ومزاعمكم .

قال الزمخشري : يقال : لفلان على يمين بكذا ، إذا ضمنته منه ، وحلفت له على الوفاء به .
يعنى : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغالطة متناهية فى التوكيد . (وإنَّ لكم لما تحكُمون)
جواب القسم ، لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم . فـ (بالغة) - كما قال
الشهاب - معناه المراد منه ، متناهية فى التوكيد . وأصله بالغة أقصى ما يمكن ، فحذف منه
اختصاراً ، وشاع فى هذا المعنى .

« سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ » أى : الحكم « زَعِيمٌ » أى كفيل به ، يدعيه ويصححه .
« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ » أى ناس يشاركونهم فى هذا الزعم ، ويوافقونهم عليه . « فَلْيَأْتُوا
بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » أى : فى دعواهم .
قال الزمخشري : يعنى أن أحدا لايسلم لهم بهذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب
لهم ينطق به ، ولا عهد به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به . ففيه تنبيه على نفي جميع ما يمكن أن
يتشبثوا به من عقل أو نقل .

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » قال ابن عباس : أى عن أمر شديد مفضح من هول يوم
القيامة . ألا تسمع العرب تقول : شالت الحرب عن ساق ؟ - رواه ابن جرير (١) .
« وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى لما أحاط بهم من العذاب الهائل الخائل .
« حَسَمَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِمُهُمْ ذِلَّةٌ » أى : تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم . « وَقَدْ
كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ » أى : لا مانع يمنعهم منه . والمراد من
السجود : عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه له ، والعمل بما أمر به من الصالحات .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبیه :

ما أُرثناه عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى (عَنْ سَاقٍ) هو المعنى الظاهر المناسب للتهويل المطرد في توصيف ذلك اليوم . في أمثال هذه الآية ، وعليه اقتصر الزمخشري ، وعبارته : الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ في شدة الأمر ، وصعوبة الخطب . وأصله في الروع والهزيمة ، وتشمير المخدرات عن سوقهن في الحرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم (١) :

أخو الحرب ، إن عَصَّتْ به الحربُ عَضَّهَا وإن شَمَرَتْ عن سَاقِهَا الحربُ شَمَرَا
وقال ابن الرقيات (٢) :

تُدْهِلُ الشَّيْخَ عن بنيه ، وتُبْدِي عن خِدَامِ العَقِيلَةِ العِذْرَاءَ
وجاءت منكرة للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة ، منكر خارج عن المؤلف كقوله (٣) :
(يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا) ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(١) من قصيدته التي مطلعها :

حَنَنْتُ إِلَى الأَجْبَالِ ، أَجْبَالِ طِيءٍ وحتت قلوصي أن رأيت سَوَاطِئَ أَحْمَرَ

ص ٦٧ من الديوان .

(٢) في الديوان : * عن بُرَاهَا العَقِيلَةَ العِذْرَاءَ *

والبيت من قصيدته التي مطلعها :

أَقْفَرْتُ بَعْدَ عِبْدِ شَمْسٍ كُدَاءً فَكُدَيْتُ فَالرَّكْنَ فالبطحاء

كُدَاءٌ : جبل بمكة وهو عرفة . كُدَيْتُ : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليماني ، ركن البيت الحرام . البطحاء : بطحاء مكة (الديوان ص ٨٧) .

وقال شارح شواهد الكشاف : إنما خص الشيخ لوفور عقله وممارسته الشدائد ، وإما لفرط محبته للأولاد . والخدمة : الخلل . والعقيلة من النساء التي عقلت في بيتها ، أي خدرت وحبست . وعقيلة كل شيء أكرم . ورفع الشعواء في البيت قبله ، وخفض العذراء ، إقواء . يتساهل الشعراء فيه . (٣) [٥٤ / القمر / ٦] .

وقال أبو سعيد الضرير : أى يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذى به قوامه ، كساق الشجر وساق الإنسان . أى : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته . استمارة من ساق الشجر ، وفى (الكشف) تجوز آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى (الفصل) : ما صح عن النبي ﷺ عن يوم القيامة أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرون سجداً . فهذا كما قال الله عز وجل فى القرآن : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) . وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير (١) :

أَلرَّبُّ سَامَى الطَّرْفِ مِنْ آلِ مَازِنٍ إِذَا شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرًا
والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح . وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصاً . ولكن من ضاق علمه أنكر ما لا علم له به . وقد عاب الله هذا فقال (٢) (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى أن الآية وعيد دنيوى للمشركين ، لا أخروى . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم (٣) : (وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل فى دنياه ، كقوله تعالى (٤) : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِمٍ إِنَّهُ يَرَى النَّاسَ يُدْعَوْنَ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لَمَنْ رَسَمُ دَارِهِمْ أَنْ يَتَغَيَّرَا تَرَاوَحُهُ الأرواحُ والقَطَرُ أَعْصَرَا

أى أن القطر يتراوحه مرة ، والرياح تتراوحه أخرى . والأعصر : الدهور (شرح

ديوان جرير ص ٢٤٠) . (٢) [١٠ / يونس / ٣٩] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٤٢] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] .

إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لا يستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذي لا ينفع نفساً إيمانها . وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت ، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله ^(١) (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ) انتهى .

قال الرازي : واعلم أنه لا نزاع في أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم . فأما قوله إنه لا يمكن جملة على القيامة ، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ههنا ، والتكاليف زائلة يوم القيامة ، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلت إن ذلك غير جائز ؟

ثم تأثر تعالى تخويفهم بمظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفي قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » أى كَلُهُ إِلَى فِائِي أ كَفَيْكَه ، وهذا من بليغ الكناية . كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه ، أن تكل أمره إلى ، وتخلّي بيني وبينه ، فأني عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك . « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ، وزيادة النعم ، من حيث لا يلبون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم . يقال : استدرجه إلى كذا ، أى : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأُمْلِي لَهُمْ » أى أمهاتهم وأنسبى في آجالهم ملاوة من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم . « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى كيدى بأهل الكفر شديد قوى .

قال الزمخشري : الصحة والرزق والمد في العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يعملونه سبباً في الكفر باختيارهم . فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى إحسانه وتمكينه (كيداً) ، كما سماه استدراجاً ، لكونه في صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة . ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤٧] (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق . « فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ » أى من عزة ذلك الأجر مثقلون . أى أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً ، فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان . « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم برهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغفون عن وحيه وتنزيله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ)

[٤٩] (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُو نِعْمَةً مِّن رَّبِّهِ لَنَبِذَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

[٥٠] (فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُو فَجَعَلَهُو مِّنَ الصَّالِحِينَ)

« فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » وهو إمامهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أى لا يثنيك ، عن تبليغ ما أمرت به ، أذاهم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخُوتِ » يعنى : يونس عليه السلام « إِذْ نَادَىٰ » أى دعا ربه فى بطن الحوت « وَهُوَ مَكْظُومٌ » أى مملوء غيظاً وغماً . والمعنى : لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والوئى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه « لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُو نِعْمَةً مِّن رَّبِّهِ » وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله « لَنَبِذَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » قال الزمخشري : يعنى أن حاله كانت على خلاف الدم حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الدم . والعراء : الفضاء من الأرض .

« فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُو » أى برحمته . قال القاشانى : لمكان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعدادده ، وعدم رسوخ الهياة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه « فَجَعَلَهُو مِّنَ الصَّالِحِينَ » أى لتمام النبوة والرسالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

[٥٢] (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ » قال الزمخشري : يعنى أنهم

من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون المداواة والبغضاء ، يكادون يُزَلُّون قدمك ، أو يهلكونك . من قولهم (نظر إلى نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني) أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال (١) :

يتقارضون ، إذا التقوا في موطن ، نظراً يُزِلُّ مواطئ الأقدام
وأنشد ابن عباس - وقد مرَّ بأقوام حددوا النظر إليه - :

نظروا إلى بآعين محمرةٍ نظر التيوس إلى سفارِ الجازِرِ
ويبين تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ للقرآن ، وهو قوله تعالى : « لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ » أى القرآن ، معادة لحكمته . « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ » أى من الهذيان الذى يهذى به في جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه . « وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمُتَلَمِّينَ » أى عظة وحكمة وتذكير وتنبية لهم ، على ما في عقولهم وفطرهم من التوحيد . فكيف يجنن من جاء بمثله ؟ - وبالله التوفيق - .

(١) قال شارح شواهد الكشاف :

كل أمر به يتجازى الناس فهو قرص . وهما يتقارضان الثناء ، أى كل واحد منهما يثنى على صاحبه .

يقول : إذا التقوا في موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق ، حتى يكاد يصرعه .